



وضعية الإماء السودوات في المجتمع التطواني خلال القرن التاسع عشر: الأدوار الأسرية، المصير القانوني، وإشكاليات التسري والاستغلال الجنسي

The Status of Enslaved woman in 19th Century Tetouan: Domestic Roles, Legal Destinies, and the Complexities of Concubinage and Sexual Exploitation.

الدكتور : حسن أكدي

دكتور في حقل التاريخ الاجتماعي

أكاديمية التربية والتكوين لجهة طنجة تطوان الحسيمة

الباحثة : لبنى الرهوني

طالبة باحثة في سلك الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي بتطوان.

الملخص

يتناول المقال أدوار الإماء في المجتمع التطواني خلال القرن 19م، مبينا أن وظائفهن لم تقتصر على الخدمة المنزلية فحسب، بل امتدت لتشمل الوساطة في الزواج، والمشاركة في الطقوس الاحتفالية، بالإضافة إلى حضورهن في البنية التعاقدية للزواج كجزء من الصداق، وكونهن من الممتلكات القابلة للتداول. من زاوية أخرى، يستوجب تناول ظاهرة "التسري" ومقاربتها بوصفها ممارسة مؤطرة ببنيات السلطة آنذاك، مع تحليل التوتر البيني بين الخطاب الأخلاقي والفقهي المعلن، وبين واقع الممارسات اليومية المتسمة بالاستغلال والعنف الممارس ضد الإماء السودوات، لاسيما القاصرات منهن. ومن خلال نموذج دال يتمثل في قصة "الأمّة مبروكة" داخل إحدى بيوت الأعيان، تسعى المقالة إلى تفكيك آليات الإخضاع القائمة على الترهيب والتدجين وإعادة تشكيل الوعي. ويخلص التحليل إلى أن مثل تلك الممارسات كانت تندرج ضمن نسق اجتماعي متكامل يعيد إنتاج الهيمنة ويكرس علاقات السيادة داخل الفضاء المنزلي للنخبة. الكلمات المفتاحية: التسري، الأمّة السوداء، العبودية، العتق، تطوان القرن التاسع عشر

Abstract

This article examines the roles of enslaved women in 19th –Century Tetouan, contending that their functions transcended domestic labor. Their roles extended to matrimonial meditation and participation in ceremonial ritual, in addition to their positioning within the contractual framework of marriage as dowry components and exchangeable property.

Furthermore, the study situates concubinage as a practice framed by contemporary power structures, analysing the tension between formal moral and jurisdictional discourses and the reality of daily practices characterized by exploitation and violence – particularly against minors. Though a case study of the enslaved woman "Mabrouka" within a notable household, the article deconstructs mechanisms of subjugation rooted in intimidation, domestication, and the reshaping of consciousness. The analysis concludedes that such practices were embedded within an integrated social system that reproduced domination and reinforced hierarchical control within elite domestic spaces.

Keywords: Female slave concubinage, Black Enslaved woman, Slavery, Manumission, 19th –century Tetouan.



المقدمة

بعد موضوع الإماء من القضايا التي تندرج ضمن تاريخ الفئات المهمشة، التي ظلت لفترة طويلة خارج مركز الاهتمام في الدراسات التاريخية، رغم حضورها الفعلي والمؤثر داخل البنية الاجتماعية للمجتمعات التقليدية. ويكتسي هذا الموضوع أهمية خاصة في شمال المغرب، ولا سيما بمدينة تطوان، حيث تكشف المصادر العدلية وكتب النوازل الفقهية عن حضور لافت للإماء داخل الحياة اليومية، سواء في المجال الأسري أو الاجتماعي أو الاقتصادي. غير أن الأمة لم تكن مجرد عنصر هامشي داخل الأسرة، بل اضطلعت بوظائف متعددة ومتشابهة، شملت الأعمال المنزلية الشاقة، والمساهمة في الطقوس الاجتماعية، إلى جانب أدوار ذات طابع أسري كالإرضاع والتربية، ومع ذلك، فإن هذا الحضور القوي داخل البيت يقابله وضع قانوني واجتماعي قائم على التبعية والاستغلال، إذ برزت ظاهرة التسري، كأحد تمظهرات هذا الاستغلال، حيث تحولت الأمة في كثير من الأحيان إلى موضوع للاستغلال الجنسي تحت غطاء شرعي وقانوني، مما جعل جسدها مستباحا ضمن علاقات القوة التي تحكم الفضاء المنزلي للنخبة.

ومع التحولات التي شهدتها المجتمع خلال القرن التاسع عشر، برز العتق باعتباره آلية مركزية لإعادة تشكيل وضعية الإماء، حيث انتقلن - نظريًا - من وضعية الرق إلى وضعية الحرية، غير أن هذا الانتقال لم يكن بالضرورة نهاية لمعاناة هذه الفئة، بل فتح أمامها مسارات جديدة اتسمت في كثير من الأحيان بالهشاشة والغموض، خاصة في ظل محدودية اندماجهن داخل المجتمع واستمرار بعض أشكال الوصم الاجتماعي.

للإجابة عن هذه الإشكالية، اعتمد هذا البحث على المنهج التاريخي التحليلي، القائم على استنطاق المادة المصدرية، خاصة الرسوم العدلية و عقود الوصايا والحوالات الحبسية، إلى جانب كتب النوازل الفقهية وكتابات الرحالة، وذلك من خلال تحليل مضامينها وربطها بسياقها الاجتماعي والاقتصادي.

بناء على ذلك، تتجلى أهمية هذا البحث في جانبين أساسيين: يتمثل الأول في سد فراغ معرفي من خلال كسر الصمت التاريخي حول فئات اجتماعية مهمشة أقصتها أيديولوجيا السلطة ونخب الأسر الكبرى، أما الثاني فيتمثل في استنطاق مادة وثائقية غنية تشمل عقود البيع والشراء، والحوالات الحبسية، وكتابات الرحالة، . أما أهداف البحث فتتمثل في الكشف عن التناقض بين الخطاب الأخلاقي والممارسة الواقعية تجاه هذه الفئة المستضعفة في تاريخ تطوان، مع إبراز الدور الوظيفي والرمزي لها داخل البنية الاجتماعية لتطوان خلال القرن التاسع عشر.

وانطلاقاً من اعتبار الإماء السوداوات في تطوان خلال القرن 19م يعتبرن نتاجاً لبنية اجتماعية واقتصادية وقانونية كرسست تشيئاً الجسد الأنثوي الزنجي، مما أسهم في انعكاسات هذه البنية على مساراتهن داخل المجتمع سواء في حالة الاستعباد أو بعد العتق، تتحدد إشكالية البحث في التساؤلات التالية:

- إلى أي حد يمكن اعتبار الإماء فاعلات داخل البنية الأسرية والاجتماعية بتطوان، رغم خضوعهن لمنظومة الرق وممارسات التسري القهرية؟

وهل شكّل العتق انتقالاً فعلياً نحو الحرية، أم مجرد تحول شكلي أعاد إنتاج أشكالاً جديدة من الهشاشة والتهميش؟

- أين يتجلى الاستغلال الجنسي للإماء السوداوات في بيوت السادة بتطوان القرن 19 م؟

ولسبر أغوار هذه المفارقة بين الدور الاجتماعي والواقع الاستغلالي للأمة السوداء، ينطلق البحث من فرضيتين أساسيتين:

الأولى: أن العتق لم يكن كافياً لضمان اندماج اجتماعي للإماء، بل ظل وضعهن بعد التحرر هشاً وخاضعاً لإعادة إنتاج علاقات الهيمنة داخل المجتمع التطواني.

الثانية: تفترض أن ممارسة التسري بالإماء السوداوات لم تكن مجرد سلوك عابر، بل تعبيراً عن تراتبية فئوية وإثنية، استخدم فيها الاستغلال الجنسي كألية لتكريس سيادة النخبة وإنتاج علاقات الهيمنة، مما جعل الأمة تعاني من استغلال مزدوج، اقتصادي كقوة عمل منزلية، وجسدي كموضوع للمتعة.

أولاً: الإماء في المجتمع التطواني: الأدوار الوظيفية والاجتماعية داخل البنية الأسرية

في قلب البنية الاجتماعية التقليدية بشمال المغرب خلال الفترة المدروسة، شكّلت الإماء عنصرًا أساسيًا ضمن قوة العمل المنزلية، حيث أسندت إليهن مهام يومية شاقة ومتعددة، شملت إعداد الطعام، وتنظيف البيت، ورعاية الأطفال، ومرافقة سيدات البيوت، فضلاً عن القيام بمختلف الأشغال المرتبطة بتدبير الحياة المنزلية.

لم تكن الأمة مجرد خادمة بالمعنى البسيط، بل كانت عنصر عمل يخضع لتوظيف مكثف داخل الأسرة المالكة لها، في إطار علاقة قائمة على التبعية والاستغلال.

كما اضطلعت الإماء بأدوار اجتماعية تتجاوز الوظيفة المنزلية، إذ ارتبط حضورهن بمظاهر الوجاهة الاجتماعية،⁽²⁷⁹⁾ خاصة لدى الأسر الميسورة التي كانت تتباهى بعدد الإماء داخل منازلها، ولا سيما الإماء الزنجيات اللواتي اشتغلن في الخدمة المنزلية. ويبدو أن وجود الأمة داخل البيت كان، في بعض الحالات، عنصرًا من عناصر التوازن الأسري، حيث كانت تضطلع بجزء كبير من الأعباء المنزلية. في هذا السياق، يورد الرحالة الأمريكي ستيفان بونزال وصفًا لبيت بريدشة بتطوان، مشيرًا إلى فخامته وكثرة الإماء فيه، حيث تحدث عن وجود عدد من الإماء السودانيات اللواتي كنّ يقمن بمختلف أعمال الخدمة داخل القصر، بما يعكس بوضوح مكانة هذه الفئة داخل النظام الاجتماعي بقوله: «أما الدار التي يقيم فيها فعابرة عن قصر واسع الأرجاء متعدد الإماء، زينت أرضه وجدرانه بأجمل أنواع الزليج اشتهرت تطوان بصنعة. أما الطابق العلوي الذي يتكون منه الحرم فقد رفع على أعمدة مرمرية بديعة، وكان قسم الحريم 20 امرأة أو بالأحرى 20 فتاة تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والعشرين. إن أربعة أو خمسة من السودانيات الموشومات كنّ يقمن بالخدمة، وقد تحليلنا بأقراط من النحاس أو البرونز»⁽²⁸⁰⁾. ويكشف هذا الوصف عن توظيف الإماء، خاصة السودانيات، كعنصر أساسي في خدمة الفضاء الأرستقراطي، حيث لم يقتصر دورهن على العمل المنزلي، بل ارتبط أيضًا بإبراز مظاهر الترف والوجاهة، بما يعكس تداخلًا بين الوظيفة الاقتصادية والدلالة الرمزية داخل المجتمع التطواني.

اتسمت وظائف الإماء داخل المجتمع التطواني بالتعدد والتداخل، حيث توزعت بين مهام خدمية وأخرى إنتاجية، وهو ما يعكس مرونة توظيف هذه الفئة داخل البنية الأسرية.

• مهارات الطبخ وقيمتها ضمن الوظائف الإنتاجية المنزلية

من بين الوظائف المتخصصة التي اضطلعت بها الإماء داخل المجتمع التطواني، تبرز خدمة المطبخ بوصفها مجالًا يتطلب مهارات دقيقة، جعلت من بعض الإماء الطباخات عنصرًا نادرًا ومرتفع القيمة في سوق النخاسة. فقد اشتهرت إماء تطوان بتمكهن من فنون الطبخ، خاصة إعداد الحلويات والأطباق المحلية، وهو ما تؤكد وثيقة تعود إلى سنة 1898م، حيث يشير أحد أعيان الدولة إلى صعوبة العثور على إماء تطوانيات متمكنات في هذا المجال، نظرًا لندرة من يجمعن بين المهارة والإتقان، إذ ورد فيها ما يلي: «فقد دعت الحاجة الأكيدة إلى أربع إماء تطوانيات نجيبات لهن المعرفة التامة بأنواع الحلويات والطبخ التطواني، من البارعات فيما ذكر، فنحبك أن تبالغ المجهود في البحث عنهن وتيسرنهن على كيفية المذكورة فأجابه بصعوبة العثور عليهن»⁽²⁸¹⁾.

تشير المعطيات إلى أن هذه الكفاءة لم تكن عفوية، بل ارتبطت بعملية تكوين غير مباشر داخل بيوت الأسر الوجيهة، حيث كانت الإماء يتلقين تدريبًا عمليًا في فنون الطبخ، بما يضمن تلبية حاجيات هذه الأسر. كما تفيد بعض الإشارات أن السلطة المخزنية أولت اهتمامًا بهذه المهارات،⁽²⁸²⁾ إذ ارتبطت بتدبير البلاط ومجالس الضيافة، خاصة في عهد السلطان عبد الرحمن، حيث تم توجيه بعض الإماء لاكتساب خبرة في هذا المجال داخل الأوساط التطوانية.

(279) عبد العزيز غورد و، آخر العبيد الرق في مغرب القرن العشرين، مكتبة قرطبة، وجدة، ط 1، يونيو 2024، ص 121.

(280) محمد داود، عائلات تطوان، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط الأولى، 2017م، ص 48-49.

(281) محمد الناجي، جند وخدام وسراري الرق في المغرب، ترجمة محمد الغرايب، منشورات فالبا، ط 1، 2018م، ص 39.

(282) نفسه، ص 40.



من جهة أخرى، لفتت هذه المهارات انتباه الرحالة الأوروبيين، ومنهم أوجيست موليراس، الذي أبدى إعجابه بتنوع الأطباق وجودتها، واصفًا مشهد تقديم عدد كبير من الأطعمة التي تعكس براعة الطباخة ومكانتها داخل البيت بقوله: «قدمت الزنجية عددًا كبيراً من الأطباق بلغ عددها عشرين تقريباً، مما أذهل الدرويش، ووضعت مائدة واطئة قرب الفراش، وشرع الرجلان في الأكل، بحيث كان الجوال جالساً فوق الزببية والقائد فوق السرير، والذواق الذي كان محمد يأكل من كل الأطعمة، مبرراً ذلك بالرغبة في معرفة مهارات الطباخة»⁽²⁸³⁾.

يمكن تفسير هذا التميز بكونه امتداداً للتقاليد الأندلسية التي تميز بها المطبخ التطواني، حيث انتقلت هذه المعارف إلى الإماء، خاصة الزنجيات، عبر الاحتكاك اليومي داخل بيوت الأسر الثرية.

ومن النماذج البارزة في هذا المجال، الطاهية "جوهرة بنت مبروك"،⁽²⁸⁴⁾ التي حظيت بمكانة خاصة، إلى درجة أن مولاي الحسن الأول طلب إرسالها دون غيرها، مما يعكس القيمة العالية التي اكتسبتها بعض الإماء بفضل مهاراتهم. ويبرز هذا المثال إمكانية تحوّل بعض الإماء، بفضل كفاءتهم، من موقع التبعية الصرفة إلى موقع يتيح لهن هامشاً من التقدير داخل دوائر السلطة، دون أن يعني ذلك بالضرورة تحررهن من البنية العامة للهيمنة.

• الإماء والطقوس الاحتفالية: الوظائف الاجتماعية والرمزية في مؤسسة الزواج:

لم يقتصر حضور الإماء في المجتمع التطواني على الأعمال المنزلية، بل امتد ليشمل مختلف مراحل ومظاهر مؤسسة الزواج، حيث اضطلعن بأدوار متعددة تجمع بين الوظيفة الاجتماعية والرمزية والاقتصادية. ففي مرحلة الخطبة، لعبت الأمة دور الوسيط غير المعلن بين الخاطب والمخطوبة، في ظل أعراف كانت تحدّ من رؤية الرجل لخطيبته قبل الزواج،⁽²⁸⁵⁾ إذ كانت تنقل الأخبار بين الطرفين، وقد تتيح للخاطب فرصة رؤية الفتاة في إطار يحافظ على القيم السائدة، مما يجعلها فاعلاً أساسياً في تيسير هذا الارتباط، ضمن شبكة علاقات اجتماعية غير رسمية تحكم مسار الزواج. يكشف هذا الدور عن موقع وسيط تحتله الأمة داخل البنية الاجتماعية، حيث تتحرك بين المجالين الخاص والعام، وتؤدي وظائف لا يمكن للأطراف الحرة القيام بها في ظل القيود الاجتماعية.

على مستوى الطقوس الاحتفالية، ساهمت الإماء في تنظيم مراسم الزواج، حيث أنيطت بهن مهام حمل جهاز العروس (الشوار)، وإخبار المدعوين بمواعيد الاحتفال، والمشاركة في الموكب، مستفيدات من هامش الحركة الذي أتيح لهن، خاصة الإماء السود. كما يشير محمد الرهوني إلى دور بعض الإماء، الملقبات بـ"العراطة"،⁽²⁸⁶⁾ في دعوة الناس إلى حضور مناسبات الزواج وفق برنامج احتفالي محدد. ومن النماذج البارزة في هذا السياق "فتح الزهر بنت فاتح"،⁽²⁸⁷⁾ التي اشتهرت بمرافقة العروس ليلة زفافها، متقدمة الموكب وهي تحمل الشموع، في مشهد يعكس الحضور الرمزي للإماء داخل الطقوس الاجتماعية. ويعكس هذا الحضور البارز للإماء في الموكب الاحتفالية وظيفة رمزية تتجاوز البعد الخدمي، حيث يساهمن في إخراج الطقوس الاجتماعية وإضفاء طابع جماعي عليها. لم يقتصر حضور الإماء على الجانب الطقوسي، بل امتد إلى البنية التعاقدية للزواج، حيث أدرجت الأمة ضمن مكونات الصداق في بعض عقود النكاح، خاصة لدى الأسر الميسورة، كنموذج عقد زواج محمد بن الطيب الشريف وفاطمة بنت الفقيه هيسور 1233 هـ/ 1817 م، بما يعكس قيمتها الاقتصادية ودلالاتها الاجتماعية المرتبطة بالجاه والتمايز الطبقي. كما تكشف كتب النوازل

(283) أوجيست موليراس، المغرب المجهول، اكتشاف الريف، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تفران، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط الأولى 2007 ج2، ص 171.

(284) ابن عزوز محمد حكيم، تطونيات في ذاكرة التاريخ، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2001 م، ص 66.

(285) أنطونيو دي سان مارتين، مدينة النعاس رحلة إلى داخل المغرب، ترجمة مصطفى الوريغلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2018، ص 71.

(286) الرهوني أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط 2007، ص 200.

(287) ابن عزوز حكيم، تطونيات في ذاكرة التاريخ، م س، ص 50.



الفقهية عن نزاعات حول ملكية الإمام أو قيمته، سواء بين الزوجين أو مع الورثة،⁽²⁸⁸⁾ وهو ما يدل على أن الأمة كانت تُعامل كمال قابل للملك والتداول داخل العلاقات الأسرية، في ظل عدم استقرار أسعارها. ويكشف ذلك عن مفارقة أساسية، تتمثل في حضور الأمة كفاعل اجتماعي داخل الطقوس، مقابل استمرار اختزالها كموضوع للملكية داخل البنية القانونية، بما يعكس الطبيعة المركبة لموقعها داخل المجتمع التطواني.

• وظيفة الإرضاع:

بين الرعاية البيولوجية وبناء روابط القرابة: تمثل وظيفة الإرضاع أحد أبرز الأدوار التي اضطلعت بها الأمة داخل الأسرة بتطوان خلال الفترة المدروسة، حيث لم تكن هذه الوظيفة مجرد ممارسة بيولوجية فحسب، بل كانت تحمل أبعادًا اجتماعية وصحية مهمة، إذ أسندت في بعض الأسر الغنية مهمة إرضاع الأطفال إلى الإمام، وفق شروط دقيقة حددتها كتب النوازل الفقهية،⁽²⁸⁹⁾ من بينها أن تكون المرضعة شابة، سليمة البنية، ذات صدر مناسب، مع التأكد من جودة لبنها من حيث اللون والرائحة والقوام.⁽²⁹⁰⁾ قد أفضى هذا الإرضاع إلى نشوء رابطة قرابة بالرضاعة بين الطفل والمرضعة، وهو ما كان يترتب عنه آثار شرعية واجتماعية مهمة داخل المجتمع. كما تشير بعض الشواهد إلى ممارسة هذه الوظيفة من قبل إماء، سواء كنّ سوداوات أو بيضاوات، مما يدل على أن الإرضاع لم يكن مرتبطًا بلون معين بقدر ما كان مرتبطًا بالكفاءة والقدرة على تلبية شروط هذه المهمة. يعكس اعتماد الأسر على الإمام في هذا الدور مكانته داخل البنية الأسرية، حيث لم تكن وظيفة الإرضاع مجرد خدمة، بل كانت تتطلب ثقة كبيرة بالنظر إلى ما يترتب عنها من تأثير مباشر على صحة الطفل ونشأته، فضلًا عن ما قد ينجم عنها من روابط قرابة تثبت الأعراف والفقه.

كما تطرح هذه الممارسة إشكالات مرتبطة بتصورات المجتمع حول اختلاط الأنساب وحدود العلاقة بين الطبقات، خاصة في ظل غياب معطيات كافية تسمح بالحسم في مدى شيوع هذا الأمر أو تقبله، غير أن بعض المؤشرات تدل على أن الإرضاع كان ممارسة مألوفة داخل الأوساط الميسورة، دون أن يثير بالضرورة رفضًا اجتماعيًا ظاهرًا.

• وظيفة التنشئة:

الإمام كفاعلات في بناء السلوك والقيم داخل الأسرة: ساهمت الأمة بدور تربوي بارز داخل الأسر بشمال المغرب، حيث لم يقتصر حضورها على أداء الخدمات المنزلية، بل امتد إلى الإسهام في تنشئة الأطفال منذ مراحلهم الأولى، خاصة في الأسر الميسورة التي خصصت لهن مكانة مميزة، وأطلقت عليهن تسميات محلية مثل "دادا" أو "طاطا".⁽²⁹¹⁾ وتعكس هذه التسمية دلالات لغوية وثقافية قد ترتبط بعفوية لسان الطفل في سنواته الأولى، حيث يطلق على الأمة أسماء محببة وبسيطة، مثل مناداة الأمة "مباركة" باسم "كوكا"، وهو ما يعكس عمق الألفة التي تنشأ بين الطفل ومربيته.

يكشف هذا التفاعل اليومي عن تشكل علاقة وجدانية قوية بين الطرفين، حيث تؤثر الأمة في سلوك الأطفال وتوجهاتهم، وتكتسب موقعًا محوريًا داخل الأسرة باعتبارها مربية ومرشدة، خاصة وأنها تتحمل مسؤولية مراقبتهم وتوجيههم في غياب الوالدين. وقد ساهم هذا الاحتكاك المستمر في خلق روابط عاطفية عميقة، قد تبلغ حد التأثير النفسي في حال فقدان الأمة أو انفصال الطفل عنها نتيجة البيع أو الوفاة.

(288) العلمي عيسى بن علي الحسيني، النوازل، تحقيق المجلس العلمي بفساس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1983، ج 1، ص 20.

(289) الوزاني أبي عيسى سيدي المهدي، النوازل الجديدة الكبرى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1996، ج 6، ص 10.

(290) حسين محمود خالد، الرقيق والحياة الاجتماعية خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام، مصر العربية للنشر والتوزيع ط 1، 2009، ص 145.

(291) جعفر ابن الحاج السلي، العبيد والثقافة الزنجية في تطوان، في القرن الرابع عشر الهجري، حتى ندرة المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري، تنسيق د. محمد بن عبود، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ط 5، 2009، ص 16.



كما حظيت بعض الإماء بثقة كبيرة داخل الأسرة، ما منحهن سلطة غير رسمية في تدبير شؤون الأطفال والإشراف على تربيتهم، وهو ما جعل دور "الداة" يتجاوز حدود الخدمة ليصبح دورًا تربويًا واجتماعيًا متكاملًا، حيث كنَّ يُقابلن بالاحترام والتقدير داخل البيت،⁽²⁹²⁾ هذا ما أكدته الباحثة حسناء داوود بقولها: «ومن الجدير بالذكر أن الصلة التي كانت تجمع بين بعض الإماء وبين أهل البيت الذي يعشن فيه كانت تقوى وتتوثق أحياناً إلى حد كبير، حتى ليظن أن الأمة فرد من أفراد الأسرة التي تعيش في كنفها، وذلك لشدة المحبة التي تكنها لهم والإخلاص الذي يميز أفعالها وأقوالها ومشاعرها نحوهم، الأمر الذي يجعلهم يبادلونها نفس الشعور ويقابلونها بنفس العواطف والأحاسيس»⁽²⁹³⁾. في حين ظل وضعهن الاجتماعي خارج هذا الإطار مرتبطاً بالوصم الاجتماعي المرتبط بوضعية الرق.

يبرز من خلال هذه المعطيات أن الأمة لم تكن مجرد خادمة، بل فاعلاً أساسياً في عملية التنشئة الاجتماعية، إذ أسهمت في غرس القيم وبناء العادات اليومية لدى الأطفال، مما يجعل دورها التربوي أحد أهم الأدوار التي ميزت حضور الإماء داخل البنية الأسرية في تطوان ومحيطها.

تكشف دراسة أدوار الإماء في المجتمع التطواني خلال الفترة المدروسة عن حضور متعدد الأبعاد، لم يقتصر على العمل المنزلي، بل امتد ليشمل وظائف اجتماعية ورمزية واقتصادية أساسية. فقد ساهمت الإماء في تدبير الحياة اليومية داخل الأسر من خلال الأعمال الشاقة، كما اضطلعن بأدوار بارزة في مناسبات الزواج، والإرضاع، والتنشئة التربوية، مما جعل حضورهن عنصراً فاعلاً في البنية الأسرية.

يُظهر تحليل هذه الأدوار أن الأمة لم تكن مجرد خادمة، بل فاعلاً اجتماعياً ساهم في إعادة إنتاج النظام الأسري، رغم خضوعها لمنظومة تقوم على التبعية والاستغلال. كما تعكس مكانتهن داخل الأسر الثرية مفارقة بين الاعتراف بدورهن داخل البيت واستمرار تهميشهن اجتماعياً خارجه.

وعليه، فإن حضور الإماء في المجتمع التطواني يبرز بوصفه ظاهرة مركبة تعكس تداخل الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وتدعو إلى إعادة قراءة موقعهن ضمن تاريخ الفئات المهمشة، ليس فقط كضحايا، بل أيضاً كعنصر فاعل داخل النسق الاجتماعي. إذا كانت هذه الأدوار تعكس حضور الإماء داخل البنية الأسرية، فإن وضعهن القانوني ظل رهيباً بمنظومة الرق، وهو ما يطرح مسألة مصيرهن عند الانتقال إلى الحرية.

ثانياً: من الرق إلى الحرية، مصير الإماء في ضوء الوثائق العدلية

شهدت المجتمعات الإسلامية عبر مختلف مراحلها التاريخية حضور نظام الرق باعتباره واقعاً اجتماعياً واقتصادياً، احتلت ضمنه الإماء موقعاً خاصاً، خضعن من خلاله لعلاقات ملكية وأحكام شرعية نظمت أوضاعهن وحددت حقوقهن وواجباتهن. ومع تطور الأوضاع وتغير السياقات، برز العتق بوصفه لحظة انتقالية حاسمة في مسار حياة الأمة، إذ تنقلها من وضعية المملوكة إلى وضعية المعتقة، بما يرافق ذلك من تحولات اجتماعية واقتصادية وقانونية. تُعد الرسوم العدلية من أهم المصادر التي تسعف في تتبع هذه الظاهرة، لما توفره من معطيات موثقة حول حالات العتق بتطوان، خاصة من خلال عقود الوصايا. غير أن هذه الوثائق، رغم أهميتها، تظل محدودة في الكشف عن المصير اللاحق للإماء المعتقات، ولا سيما من حيث اندماجهن داخل النسق الاجتماعي. انطلاقاً من ذلك، يطرح هذا المحور جملة من التساؤلات المركزية: إلى أي حد تمكننا عقود الوصايا من رصد ظاهرة العتق؟ وهل تسعف هذه الوثائق في تتبع مصير الإماء المعتقات والكشف عن أوضاعهن بعد نيل الحرية؟

1. من العبودية إلى العتق: تمثيلات الحرية في عقود الوصايا

تُظهر الوثائق العدلية، خاصة الحوالات الحبسية، كثرة الوصايا المتعلقة بالعتق داخل المجتمع التطواني خلال الفترة المدروسة، مما يعكس شيوع هذه الظاهرة واتساع حضورها في البنية الاجتماعية. كما يُلاحظ في المقابل قلة الدراسات التي تناولت موضوع

(292) داوود حسناء، تطوان سمات وملامح من الحياة الاجتماعية، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مكتبة سلمى الثقافية، 2019، ص 130.

(293) داوود حسناء، تطوان سمات وملامح من الحياة الاجتماعية، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مكتبة سلمى الثقافية، 2019، ص 130.



العتق في هذا المجال، باستثناء بعض الأعمال الرصينة، من بينها دراسة كل من الدكتور خالد الرامي والدكتور الإسباني خوسيه لويس ماثيو، الموسومة بـ: (La Gran Recompensa en otro mundo: esclavitud y manumisión en Tetuán (1800–1956))، التي كشفت من خلال الوثائق العدلية عن حالات العتق بتطوان خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.⁽²⁹⁴⁾ تدل المعطيات على أن العتق كان ظاهرة استثنائية أو نادرة، بل تشير المعطيات إلى أنه كان ممارسة مألوفة داخل المجتمع التطواني، حيث أعتق عدد من الأسر الغنية إماءها، بل وسعت في بعض الحالات إلى ضمان مورد عيش لهن بعد العتق، في إطار تصور يجمع بين الإحسان والمسؤولية الاجتماعية. ومن خلال تتبع عقود الوصايا التي خلفتها فئات من الخاصة قبل وفاتهم، يتضح أن العتق كان وسيلة شائعة لاستعادة الإماء لحريتهن، سواء عبر وصايا مباشرة أو عبر تدابير قانونية لاحقة. كما شمل العتق الرجال والنساء على حد سواء، إذ سارع العديد من المالكين إلى تحرير عبيدهم قبل الوفاة، إما بدافع ديني أو إنساني، أو اعترافاً بالوفاء والخدمة الطويلة. ومن بين الأمثلة الدالة على ذلك، وصية التاجر الحاج أحمد الرزيني الذي أعتق أمته المسماة "الياسمين"⁽²⁹⁵⁾.

يُلاحظ أن الدافع إلى العتق لم يكن محصوراً في الاعتبارات الإنسانية فحسب، بل كان يرتبط كذلك ببعد ديني، حيث اعتُبر العتق من أعمال البر ووسائل التقرب إلى الله، وصدقة جارية تعود بالنفع على الموصي في حياته وبعد مماته. ولم تقتصر هذه الممارسة على عتق الإماء الموجودات فعلياً في ملكية الأسر، بل امتدت أيضاً إلى وصايا تقضي بشراء أمة من ثلث التركة ثم تحريرها، كما في وصية السيدة رقية بنت السيد العربي العزيزي التطواني التي ورد فيها: «الحمد لله أوصت المرأة السيدة رقية بنت السيد العربي العزيزي التطواني أن قدر الله تعالى بموتها الذي لا بد منه [...] فيشتري من ثلث متخلفها أمة من وسط الرقيق قادرة على الكسب وينجز عتقها، وتلحق بأحرار المسلمين»⁽²⁹⁶⁾.

كما عرفت هذه العملية نوعاً من الرقابة القانونية، حيث كان تنفيذ وصايا العتق يتم تحت إشراف أوصياء، كما في حالة وصية المرحومة عائشة بنت السيد محمد اللبادي، التي أوصت بشراء أمة وتحريرها، فقام كل من السيد عبد الكريم اللبادي والسيد محمد بن الحاج المهدي اللبادي بتنفيذ الوصية وشراء الأمة المسماة "فاطمة" ثم عتقها وإلحاقها بأحرار المسلمين⁽²⁹⁷⁾. يُسجل أيضاً تنفيذ وصية المرحومة رقية محمد راغون، التي أوصت بعتق أمة تُدعى "فطيمة الغرابوية"، حيث تولى أبناءها السيد عبد الغفور، وعلي، وسيدي محمد اللبادي تنفيذ هذه الوصية وفق ما جاء في عقدها العدلي⁽²⁹⁸⁾، ويُظهر هذا أن الورثة غالباً ما كانوا يلتزمون بتنفيذ وصايا العتق، بما يعكس حضوراً قوياً للقيم الدينية والاجتماعية المرتبطة بهذه الممارسة.

من خلال تتبع ما ورد في متون العقود العدلية، يتبين أن العتق كان ممارسة راسخة ومؤسسة داخل المجتمع التطواني، مما يعكس من جهة شيوع ظاهرة العبودية، ومن جهة أخرى انتشار ثقافة العتق كفعل إنساني وديني. ويكشف هذا التداخل بين الرق والعتق عن بنية اجتماعية مركبة، حيث لم يكن العتق مجرد انتقال قانوني من العبودية إلى الحرية، بل كان يحمل دلالات رمزية واجتماعية تعبر عن توازن بين السلطة والرحمة، وبين الامتلاك والتحرر.

لم تعد تمثيلات الحرية داخل المجتمع التطواني خلال القرن التاسع عشر مقتصره على المبادرات الفردية المرتبطة بالعتق، بل تأثرت أيضاً بالتحويلات الدولية، خاصة في ظل تنامي الضغوط الأوروبية الرامية إلى الحد من ظاهرة الرق. فقد لعبت كل من فرنسا

(294) <http://revistaseug.ugr.es>

(295) رسم عدلي، 24 محرم 1289 هـ / 3 أبريل 1872 م، خ، د، و ت 1709 م 22.

(296) رسم عدلي، 29 ذي الحجة 1226 هـ / 14 دجنبر 1812 م، خ، د، و ت 343 م 6.

(297) رسم عدلي، 13 محرم 1243 هـ / 6 أغسطس 1827 م، خ، د، و ت 1779 م، 23.

(298) رسم عدلي، 6 ذو القعدة 1295 هـ / 1 نونبر 1878 م، خ، د، و ت 280 م 6.



وانجلترا دورًا بارزًا في هذا السياق، من خلال بعثات دبلوماسية سعت إلى إقناع المخزن بضرورة إيقاف تجارة الرقيق (299). يعكس هذا التدخل تحولًا في مفهوم الحرية، حيث لم يعد العتق مجرد فعل إحساني أو ديني، بل أصبح جزءًا من دينامية أوسع، تتداخل فيها الاعتبارات السياسية والدولية، وهو ما ساهم تدريجيًا في إعادة تشكيل تمثيلات المجتمع لمفهوم الحرية وحدودها.

2. ما بعد العتق؟ تتبع أوضاع الإماء المعتقات من خلال العقود العديلية

يُلاحظ، في البداية، غياب نسبي في المصادر التي تُعنى بتتبع المصير الذي انتهت إليه العديد من الإماء بعد عتقهن، وهو ما يجعل رصد أوضاعهن بعد التحرر مهمة صعبة، وتعتمد أساسًا على ما توفره العقود العديلية من إشارات متفرقة. غير أن المعطيات المتوفرة تُظهر أن بعض الأسر التي عاشت الإماء في كنفها كانت حريصة على تأمين مستقبلهن، من خلال توفير مصدر للعيش أو إبقائهن ضمن محيطها الاجتماعي. لا يُفهم من العتق، في كثير من الحالات، أنه كان استجابة لرغبة الإماء، بقدر ما كان يعكس رغبة الأسياد في تحصيل الأجر والثواب، حيث تضمنت العديد من الوصايا تبرعات ووصايا بالعتق، خاصة من طرف الفئات الميسورة، في إطار تصور ديني يجعل من العتق عملاً تقربياً. كما أن بعض الإماء، خاصة المنتميات إلى أسر الوجهاء والتجار، فضّلن الاستمرار في العيش في كنف أسيادهن رغم عتقهن، بالنظر إلى الامتيازات التي كن يتمتعن بها، مثل السكن والكسوة والمؤون والهبات، إضافة إلى ما كان يُمنح لهن من عطايا في المناسبات والأعياد (300) وهو ما يعكس أن العتق لم يكن دائمًا مقرونًا بالاستقلال الفعلي. اختارت فئة أخرى من المعتقات البقاء في علاقة مع أسيادهن، نظرًا لغياب بدائل اقتصادية، وافتقارهن إلى حِرَف أو موارد للعيش، مما كان قد يعرضهن للتشرد أو الانزلاق نحو ممارسات هامشية كالغناء أو البغاء، أو حتى العودة إلى منظومة الرقيق عبر وسطاء (الدلالين) (301). وقد أشار السلطان الحسن الأول، في هذا السياق، إلى الصعوبات التي تواجه المعتوقين والمعتوقات في إيجاد عمل يضمن لهم الاستقلال الاقتصادي (302) كما عرفت بعض الحالات عودة المعتقات إلى وضعيات قريبة من العبودية خاصة عند ارتباطهن ببيوت المخزن، إذ إن عزل المسؤول المخزني ومصادرة أمواله (303) كان يترتب عنه إدراج الإماء ضمن الممتلكات المصادرة، مما يعيدهن إلى دوامة الهشاشة وربما العبودية من جديد. ورغم هذه الوضعية، استطاعت بعض الإماء المعتقات في شمال المغرب امتلاك بعض الممتلكات أو الموارد المالية، بفضل وفائهن لأسيادهن وخدماتهن الممتدة. وتُشير بعض الوثائق العديلية إلى هذا الجانب، كما في وثيقة: «الحمد لله حضر لدى شهيديه سالم معتق السيد السمار، وأشهد على نفسه أن ما وجب له إرثًا في زوجه مبروكة معتقة الرزني سامح فيه لابنته منها مريم لله وفي الله» (304) وهي وثيقة تُظهر أن الأمة مبروكة، رغم عتقها، تمكنت من اكتساب بعض الحقوق المرتبطة بالإرث، وإن لم تُفصّل طبيعة هذا الإرث أو حجمه. كما نجد نماذج أخرى لإماء معتقات تركن متروكًا بسيطًا، كما في حالة فرحة بنت فاطمة معتوقة مدينة، التي خلفت ممتلكات محدودة تتمثل في بعض الحلي (السوارين من الفضة مع صفائح ذهبية) ولباس تقليدي (قفطان وخمار)، قُدرت قيمتها بحوالي خمسين ريالًا، حيث أوصت باستعمالها في تجهيز جنازتها وبعض أعمال الصدقة، (305) ويُستشف من ذلك أن متروكات المعتقات كانت في الغالب بسيطة، تعكس وضعًا اقتصاديًا محدودًا.

(299) الهاشمي ماجدة، «قانون إلغاء الرق في المغرب وتونس بين القرار السياسي والخطاب الديني والواقع الاجتماعي»، ضمن كتاب، الوثيقة والصورة والذاكرة، أعمال مهداة إلى روح الفقيد عبد الرحمن المودن، تقديم مصطفى الغايشي، تنسيق عبد الحى الخيلي، محمد الخداري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ط1، 2022 مطبعة باب الحكمة، ص 220. (213 – 237).

(300) محمد الناجي، جند وخدام وسراري الرق في المغرب، م س، ص 134.

(301) نفسه، ص 133.

(302) جند وخدام وسراري الرق في المغرب، م س، ص 133.

(303) نموذج القائد بن يوسف الذي صادر منه القائد محمد أشعاش أمة من متروكه وبأمر من السلطان (انظر عمر أشعاش، أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ذاكرة الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية، مطبعة الخليج العربي، ط1، 2016، ص 111 – 112).

(304) رسم عدلي، 18 جمادى الأولى 1296 هـ/ 10 ماي 1896 م، خ د، و ت 289 م6.

(305) رسم عدلي، فاتح الحجة 1310 هـ/ 16 يونيو 1893 م، خ د، و ت 1663 م21.



في بعض الحالات، أوصت بعض الإماء بإرجاع ما في حوزتهن من ممتلكات إلى أصحابها، وعدم توريثها، كما في وصية رابحة دحبلون، حيث ورد في الوصية ما يأتي: «الحمد لله أوصى الصيفة رابحة دحبلون المعروفة [...] أنه إن قضى الله بوفاتها فإن الحوايج التي تحت يدها المعروفة بحوايج الملوك تدفع لأربابها كل واحد يعيد حاجته ويأخذها ولا تورث عنها لأنها ليس لها حظ فيها ولا تورثها أيضا، نافذا بعد الموت»³⁰⁶. وهو ما يدل على أن بعض الممتلكات لم تكن مملوكة لهن قانونيًا، بل كانت في حكم الأمانة أو الاستعمال المؤقت. مع ذلك، فإن العقود العدلية، رغم كثرتها، لم تُسعف في تتبع المسارات اللاحقة للإماء المعتقات، إذ تكتفي غالبًا بالإشارة إلى فعل العتق دون التطرق إلى ما بعده، مما يترك حياة هؤلاء النساء بعد التحرر في حالة من الغموض، بسبب محدودية المادة المصدرية. على الرغم من نيل الحرية، فقد ظلت هذه الفئة تعاني من أشكال متعددة من التهميش الاجتماعي، المرتبط أساسًا بلون البشرة والانتماء الاجتماعي، حيث كان يُنظر إلى المعتقات نظرة دونية مشوبة بالريبة، الأمر الذي أعاق اندماجهن داخل المجتمع، وحدد من قدرتهن على بناء علاقات اجتماعية مستقرة. وهكذا، فإن العتق، بدل أن يكون نهاية للمعاناة، شكل في كثير من الأحيان بداية لتحديات جديدة، تميزت بهشاشة الوضع الاقتصادي والوصم الاجتماعي.

ثالثًا: من المتعة إلى الاستيلاء: جوانب من إشكالية التسري بالإماء في مجتمع تطوان القرن 19م

من منظور علاقات السلطة والجنس، تظهر دراسات أن الجوّاري في العالم الإسلامي، بما فيها المغرب، لم تقتصر أدوارهن على الخدمة المنزلية فقط، بل اشتملت على العلاقات الجنسية مع أسيادهن، وهو ما يعرف في الأدبيات التاريخية بثقافة Concubinage أي أن الإماء كن يستخدمن كعلاقات جنسية ضمن بنية العبودية. ويشير المؤرخون إلى أن النساء المستعبדות اللاتي كن يصبحن إماء قد ترتب عليهن وضعاً قانونياً واجتماعياً بحيث يمكن أن ينتج عن ذلك زواجا يمنح الأمة ذات الولد حرية أو مكانة اجتماعية أعلى في بعض الأحيان. هذا ما يعكس العلاقة المركبة بين السلطة، الجنس، والسلع الاجتماعية في السياق المغربي.

دونما شك فالبحث في إشكالية التسري³⁰⁷ بالأمة، يقتضي التطرق إلى المسببات التي دفعت الأسياد إلى تفضيلهم والولوع الشديد بهن أحيانا. فبغض النظر عن الشريعة ومواقف الفقهاء، في اعتقادنا أن أول أرضية لفهم ذلك تاريخيا هي النظر في الاشتراطات التي تضمنتها عقود الأنكحة التي خصت بالذات الفئات المتنفة والغنية بالمجتمع. هذا الإشكال حاولت فاطمة العيساوي كباحثة في قضايا المرأة خلال القرن التاسع عشر، أن تتقصاه بالوقوف على نماذج من الاشتراطات التي كانت الزوجة الحرة تلجأ إلى توثيقها في العقد عند خطبتها. فكان أبرزها: شرطي عدم التعدد والتسري، أي غالبية النسوة اللواتي يتقدم لهن رجل ذو مقام رفيع، وقبل أن تبدأ حياتها الزوجية معه، تشدد على ألا يتزوج عليهما، وأيضا أن لا يتخذ له أية سرية، فإن أخل بهذا كان عليه إلزاما بتطبيق الزوجة الثانية أو تحرير الأمة حتى لا تبقى في ملكيته. أي أن سلوك هذه النوعية من الزوجات، في الغالب كان مرتبطا بمشكلتين: الرفض المطلق للتعدد، ثم أن التسري بالنسبة لهن في العمق كان له نفس المعنى المتعلق بالتعدد رغم وجود فرق قانوني في هذه الوضعية. ومن الملفت في هذا الإطار أن بعض الأجناب ذكروا أن السيد كان يوزع الأدوار بين الإماء اللواتي غالبا ما يتسرى بهن نهارا، أما الحرات فيكون دورهن ليلا³⁰⁸.

ثم إن من بين الشروط الأخرى التي زادت من عدم اتخاذ البعض سرايا لأنفسهم، شرط عدم غياب الزوج، والذي عبر عنه في العقود بمصطلح شرط الجورة أو المجاورة، مع تضمين 'أمرها بيدها' إذا غاب عنها و وقعت لها أضرار منه³⁰⁹. ولربما أن العادة التي ميزت

(306) رسم عدلي، فاتح صفر 1302 هـ/ 20 نونبر 1302 م، خ، د، و ت 1607 م 21.

307- المصطلح له معاني ذات نفس الدلالة تقريبا في ثقافات أخرى مثل: المسيحية والحضارة الرومانية، واليهودية، راجع:

- *The concept of Concubinage in Christianity*, Au sein du site web, www.wisdomlib.org

- *Pilegsh (Hebrew)* Au sein du site web, www.ishencyclopedia.com

308- *Ovilo y canals, Felipe, La mujer marroquí (1881)*. 2ed, ilustrada con cromos al lápiz y dibujos a al pumapor Demócrito Madrid, 1881, emprenta de Manuel 138. p.G. Hernández Hernández

309- فاطمة العيساوي، المرأة و المجتمع، دكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2009، صص. 120-121.



اتخاذ زوجة واحدة بالنسبة لبعض رجالات تطوان آنذاك كما سبق ذكره، غالبا ما ارتبط بهذه الشروط، دون إغفال بالطبع التكاليف المادية التي قد تترتب على الزوج في حالة وجود أمة، بينما كان خيار اتخاذ السرايا بالنسبة لكثير من الأغنياء و كبار الأعيان، ضرورة لا مندوحة عنها، بل وجودهن في حياتهم الأساس منه إرواء الرغبات الجنسية، خاصة أن المتصفح لنماذج من عقود شرائهن كانت من بين المفضلات للشراء تلك الصغرى وذات مواصفات معينة تناسب الغرض، ومن التفسيرات المنطقية لمثل هذا السلوك البشري الذي طبع حياة أولئك الوجهاء، نجد التالي: الطاقة الجنسية المميزة للسوداوات، وهو ما يعبر عنه الناجي، « الأمة البيضاء فكالجليد جسدها، لا تستجيب للمداعبة، فهي ثلج الشتاء بل الزمهرير، والسوداء حطب جهنم بل نار السعير»³¹⁰. ثم انحراف الصداق عن مدلوله الحقيقي عند التطبيق، فبسبب ما تضمنه جهاز العروس الحرة كما يلاحظ في نماذج من عقود المرحلة، أن الصداق أعطيت له صبغة السعر أو الثمن، فأصبح الزواج وكأنه صفقة بيع³¹¹. بينما الأمة لا تكلف شيئا، وأمرها مختلف تماما. فهي كما يرى الفقهاء كالمأكول والملبس يستعمل حسب الهوى في كل زمان ومكان. فإذا كان الشرع لظا فيما تعلق بحقوق الزوجة، فإنه على العكس من ذلك، متسامح إلى أقصى الحدود في حق هذه الغرابيب من الأجساد التي يبدو أنها ما خلقت إلا للمتعة³¹². دون أن ننسى هنا امثال الإماء الزنجيات لأوامر السيد في استعمال موانع الحمل، حيث كن يستعملن عقاقير مختلفة أثناء حدوث الحمل، غير أن بعضهن كن يتلاعبن في ذلك لإنجاب أبناء من السيد كأولى الخطوات المضمونة نحو العتق³¹³. غير أن الزوجة الحرة تظل هي المثال بطبيعة الحال. كانت هي ومثيلاتها محميات بصورة أفضل، بحكم الحرية التي يتمتعن بها من السلوكات التي تصدر عن الإماء، ويتم التشجيع على الزواج منهن بهدف الإنجاب، في حين أن الهدف من وراء التسري هو الاستمتاع فقط، الأمر الذي يفسر إمكانية الاستغناء عن السرية في أي وقت بخلاف الزوجة الحرة³¹⁴.

ولعله عدة تفسيرات تتناسل في هذه الحالة، لكنها قد تحتاج للوثيقة أو الرواية الشفوية حتى يكون التأويل المطروح غير مجاني للحقيقة التاريخية. وهو ما يؤكد شوقي الهامل الذي أشار في إحدى دراساته أنه بالرغم من محدودية الأدلة التاريخية على حياة الإماء داخل المجتمع المغربي بسبب ندرة المصادر المكتوبة، لكن ممكن عبر الروايات الشفوية والإرث الغنائي فهم جوانب من تلك التفاعلات الجنسية والعاطفية مع الأسياد وكيف كانت توظف كجزء من ديناميات القوة والبقاء داخل مجتمع تراتي³¹⁵.

رابعا: الاستغلال الجنسي للإماء السوداوات بيت العين التطواني

وإن كانت هناك دراسات حول العبودية في المغرب فإن البحوث التي تعالج البعد الجنسي باعتباره أساسيا للكشف عن الجانب المظلم الذي عاشته الإماء لاتزال نادرة، لذلك سنحاول هنا استثمار قصة واقعية في تاريخ المدينة كشفت عنها إحدى الباحثات في إحدى أبحاثها كمصدر أولي لإبراز ما قاسته أجساد الكثير من الإماء أحيانا من استغلال جنسي كن عرضة له مرارا، والذي سيظل ملغيا ومغيبا من ذاكرة المجتمع مادام يتعلق بذوات لهامشيات منسيات. لذلك نتساءل، كيف يمكن قراءة هذه القصة بوصفها بنية تاريخية، لا مجرد واقعة خصت أسرة تطوانية فقط؟

لا ننسى أن تمتع السيد بجسد الأمة لم يكن انحرافا فرديا، بل ممارسة محمية اجتماعيا ومؤطرة فقها، ففهم وقائع الاستغلال الجنسي للإماء بمعزل عن الإطار الفقهي والقانوني الذي شرعن علاقة السيد بالأمة، حيث اعتبر جسدها جزءا من الملكية الخاصة، وهو ما ألغى عمليا أي إمكانية لاعتبار العلاقة علاقة رضائية، وبهذا المعنى، فإن الاستغلال الجنسي لم يكن سلوكا معزولا، بل

310- محمد الناجي، جند وخدم وسراري، الرق في المغرب. ترجمة، محمد الغرايب، منشورات فاليا، طبع مطبعة التومي، سلا، الطبعة الأولى 2018، ص. 86.

311- راجع خلاصات مهمة بخصوص ذلك عند فاطمة العيساوي، المرأة والمجتمع... م. س، ص. 115. وكذا تلك الضوابط التي وضعها أهل الحل والعقد بتطوان في محاولة للتخفيف من ثقل التقاليد والتكاليف التي كان يطرحها الزواج من الحرانر. أنظر، تطوان، سمات وملامح من الحياة الاجتماعية. منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة الخليج العربي، الطبعة الأولى 2021، صص. 224-231.

312- محمد الناجي، جند وخدم... م. س، ص. 86.

313- محمد السعديين، المرأة السلاوية، 1912-1666. منشورات جمعية سلا المستقبل، مطابع الرباط نت، ط 2014، ص. 30.

314- محمد الناجي، العبد والرعية، العبودية والسلطة والدين في العالم العربي. توطنة ريجيس دوبري، المكتبة الوطنية، ترجمة، 2009، ص. 51.

315- ChoukiEl Hamel, Black Morocco, A History of Slavery, Race and Islam. African studies. Cambridge university, press, 2013.



ممارسة محمية ببنية قانونية-اجتماعية كرسست اختلال ميزان القوة بين الطرفين. ويتضح من تاريخ الحاضرة بأن التسري والمعاشرية الجنسية للإماء الصغيرات لم تنج أو تسلم منها حتى بيوت علماء وفقهاء المجتمع التطواني رغم ما عرف عنهم من ورع وتقوى واستقامة واعتصام بأحكام الشريعة الإسلامية، إذ تكشف لنا الحكاية أن فقها وأديبا غنيا من أصول جزائرية يدعى بالسيد 'عبد القادر بوغدة' اشترى طفلة ذات الإثنى عشر ربيعا تدعى مبروكة، ستجد نفسها في بيت تطواني مترامي الأجنحة والباحات الكبيرة، حيث سلمها سيدها لرئيسة جناح الخادمت والإماء "طاطا عنبر" وهي عبدة أمة بدورها، لكنها مسنة وذات خبرة وتجربة ناضجة نادرة في مجالها³¹⁶.

بداية المعاناة التي ستواجه هذه الطفلة الصغيرة المسماة مبروكة ستنتقل منذ اللحظات الأولى التي دخلت فيه لهذا البيت الفسح الأنيق والفخم في مكوناته وتصميمه وأثاته، إذ بمجرد أن تسلمتها "طاطا" " حذجتها بنظرات قاسية مخيفة، وسعرت لها خدها، وقطبت جبينها، وجذبتها إليها من يدها الصغيرة النحيلة، بعنف وفضاضة، وهي تتمتع متعوذة من شرها ومن الشيطان الرجيم، بينما الصغيرة ترتعش فرائصها هلعا ورعبا منها"³¹⁷. هذا يكشف بوضوح أن جسد الأمة بوصفه مجالا خالصا للهيمنة، لا ينظر إليه كذات إنسانية بل كأداة للخدمة والشقاء، ويزداد التشيي حدة حين نقارنه بالصمت الذي يلف معاناة الطفلة داخل ثنايا الحكاية، حيث تسجل الواقعة دون أي مساءلة أخلاقية للسيد الفقيه، مما يعكس اختلالا بنيويا في منظومة العدالة الاجتماعية. فتتبع قصة الأمة يكشف أن العنف الذي مورس عليها، لم يبدأ بالفعل الجنسي، بل سبقه عنف رمزي تمثل في أسلوب التهديد والوعيد الذي اعتمدهت عليه رئيسة الخدم عند تحديد مهامها داخل منزل السادة. ويعد هذا التهيب آلية أولية لتطبيع الخضوع، حيث يعاد تشكيل وعي الأمة منذ دخولها الفضاء المنزلي بوصفه فضاء للعقاب والانقياد لا للحماية أو الرعاية، "ختمت درسها النظري لها عن اختصاصاتها، بسلسلة من عبارات الشتم والسب واللعن، المصحوبة بعبارات التهديد والوعيد: بالضرب والجرح والكي، إذا ما هي تهاونت في القيام بالمهام المسندة إليها في نطاق اختصاصاتها، شأنها شأن زميلاتهن من الخادمت والجواري والإماء"³¹⁸، وإن كان سيد البيت غائب هنا عن متابعته ما يجري بخصوص إماءه الصغيرات، رغم صفته العلمية والفقهية، فهذا لا يمكن قراءته بوصفه غيابا فعليا للسلطة، بل باعتباره شكلا من أشكال التفويض الضمني للعنف داخل البنية المنزلية. فالفضاء المنزلي يتحول هنا لمجال مغلق تمارس داخله السلطة دون رقابة، مما يسمح باستمرار أنماط متعددة من الإيذاء الجسدي والنفسي في حق الإماء، وخاصة القاصرات منهن.

يحضر كذلك التهيب في الحياة القاسية لهذه الأمة ضمن هذا البيت ب"وجوب حضور العملية التأديبية لأحد العبيد الصغار، بجناح الخدم والعبيد الذكور، ترهيبا وقمعا وردعا لهن جميعا"³¹⁹، ويفهم من هذا بوصفه شكلا من 'التنشئة' القسرية، حيث يدمج الوافدون الجدد للبيت عبر صدمة أولى تعرفهم بحدود السلطة ومآلات العصيان، وبهذا المعنى، يصبح العنف وسيلة لإدماج سلبية داخل منظومة العبودية، لا استثناء عنها. أضف لهذا أن دور رئيسة الخدم يبرز ليس فقط كمكلفة بتنظيم العمل بالبيت، بل وسيطا رئيسيا في ترسيخ ثقافة الطاعة والخوف داخل المنزل. من جهة ثانية، فاستدعاء الأمة الصغيرة لحضور ذلك المجلس التأديبي لعبد ذكر، مباشرة بعد إحاطتها بمهامها، لا يمكن فهمه بوصفه ممارسة استعراضية للعقاب، بل يقصد منه ترسيخ متعمد لمنطق الطاعة عبر المشاهدة لا عبر الفعل المباشر. فالعقاب هنا لا يستهدف المدان وحده، بل يوظف كرسالة ردعية موجّهة لقبية المستعبدين.

ونحن نتتبع بعض التفاصيل في الأرشيف المحلي للمدينة لا تحضر تفاصيل عقاب الإماء والعبيد وآثاره، وهو صمت يعكس حدود ما يسمح الأرشيف بتدوينه، ويؤكد لنا أن العنف الأكثر فجاجة ظل خارج النص، مادام المدون من الأسياذ لا يريد الكشف إلا ما

316 - التلمسماني أسية الهاشمي البلغيثي، العبودية والنخاسة بالرقيق الأسود في مدينة تطاون إلى منتصف القرن العشرين. مطبعة المعارف الجديدة 2020، ص، 29.

317 - العبودية والنخاسة بالرقيق ... م س، ص، 30.

318 - نفسه، ونفس الصفحة.

319 - نفسه، ونفس الصفحة.



يظهره محسنا أو ذاتا تتشبع بقيم نبيلة.

وفي ظل حضور الأمة مبروكة مجريات العقاب الذي طبق على العبد الذكر، أصيبت "بنوبة من الهلع والذعر، حيث أخذت ترتعش وتمتد من قمة رأسها إلى أخماس قدمها، وسرعان ما دخلت في غيبوبة كاملة، نقلت على إثرها إلى فراشها، بركتها الخاص من جناح الخادما والجواري والإماء"³²⁰، المفارقة هنا أن الحكاية تسجل سقوط الأمة في غيبوبة دون أن تتوقف عند عنف المشهد ذاته، وهو ما يعكس انحيازاً يتضمنه في الغالب الأرشيف الوثائقي حيث يذكر فيه الأثر العرضي ويتجاوز السبب البنيوي. ويكشف هذا الصمت عن حدود الذاكرة أو التدوين التاريخي حين يتعلق الأمر بتجارب الفئات المستعبدة.

الهلع الذي أصاب الأمة منذ أيامها الأولى داخل المنزل يتيح فهما أعمق لما سيلي من أشكال الاستغلال، إذ يعاد تشكيل وعي الضحية في سياق تلغى فيه القدرة على الرفض أو المقاومة. فإدماج الأمة بالفضاء المنزلي كما يتضح من أحداث القصة تم عبر الرعب والصدمة الأولى، بما يعيد بناء علاقاتها بالسلطة ويؤسس لمسار تراكمي من الخضوع، لا يمكن فصله عن أشكال الاستغلال اللاحقة. وهذا ما سيظهر في مسار حياة هذه البرينة المستعبدة بمنزل سيدها الورع، فمجرد استفاقتها من غيبوبتها شعرت بعبد الصمد -إبن السيد- "يندس معها في فراشها، ويشرع في تحسس جسدها الغض الصغير وأعضاء عفتها، بهدف اغتصابها، والعبث ببيكارتها واستحياء طفولتها... رفعت صوتها بصراخها مستغيثة مستنجدة، فبادر بالفرار من الجناح إلى غرفته"³²¹. فتزامن استفاقة الأمة من الغيبوبة مع شروع ابن السيد في تحسس جسدها لا يمكن فهمه باعتباره حادثتين منفصلتين، بل بوصفه انتقالاً سلساً من عنف تآديبي استعراضي إلى عنف جنسي صامت. فالحدث يكشف عن وحدة منطلق الهيمنة داخل البيت، حيث يتخذ العنف أشكالاً متعددة دون أن يفقد طابعه البنيوي. فالواقعة تبرز الجسد الذي خرج لتوه من صدمة عنيفة يصبح أكثر هشاشة أمام الاعتداء، إذ تسلب الضحية في لحظة الإفاقة قدرتها على الوعي والمقاومة. ويفهم العبث بجسد الأمة كاستغلال متعمد لحالة العجز الجسدي والنفسي، لا كمجرد نزوة فردية. تزداد خطورة هذا الحدث حينما يقع داخل بيت يقدم صاحبه بوصفه عالماً أديباً وفقهاً، إذ يكشف التناقض بين الخطاب الأخلاقي المعلن والممارسة اليومية داخل الفضاء المنزلي. فصمت السيد، سواء أكان جهلاً أم تغاضياً، يندرج ضمن منطق التواطؤ البنيوي الذي يتيح لأفراد البيت الذكور ممارسة الإستغلال دون مساءلة. من زاوية أخرى، يبرز الحدث عن تداخل العبودية والطفولة والنوع الاجتماعي في إنتاج وضعية قصوى من التهميش، تختزل فيها الضحية إلى جسد قابل للانتهاك دون اعتبار لسنها أو آدميتها.

المفزع في محاولة "الاعتصاب" هذه، أن 'طاطا' عنبر "وبختها وقرعتها أمرة إياها ألا تعود إلى مثلها... مادام ذلك من حقه، ومن واجبها التجاوب معه وتلبية رغباته كلها"³²²، فهذا الرد اتجاه ذلك الفعل لا يعكس عدم وقوعه، بل يشير إلى أن الصمت ذاته كان شرطاً لحدوثه واستمراره. فالبيت التطواني الأرسطراطي، كما تكشف هذه القصة، لم يكن فضاءً خاصاً بالمعنى الحميمي، بل مجالاً مغلقاً تمارس داخله سلوكيات عنف لا تصل للفضاء العمومي ولا إلى سجلات المساءلة المخزنية آنذاك. وربما هذا ما سمح باستمرار معاناة الإماء بعيداً عن أي حماية اجتماعية أو أخلاقية. وغالباً أن الاستغلال الجنسي كان مشاعاً في عدة فضاءات منزلية لكبار القوم بالمجتمع التطواني، وهو ما يفهم هنا "التفت حولها زميلاتها، لمواساتها ومشاركتها الوجدانية في مأساتها... حيث حكين لها قصصهن وما تعرضن له جميعهن، من اعتداء واغتصاب من طرف جل رجال الأسر التي اشترتهن"³²³، ومن خلال هذا يتضح أن الاستغلال الجنسي للإماء لم يكن طارئاً، بل جزءاً من منظومة صلبة تكرر داخل البيوت الحضرية في عدة مدن مغربية خلال تلك الفترة.

نص الحكاية هنا، يطرح رؤية سوسيو. تاريخية تعتبر أن الاستغلال الجنسي للإماء في بيوت أعيان تطوان لم ين سقطه أخلاقية

320 - العبودية والنخاسة... م. س. ص. 31.

321 - نفسه، والصفحة نفسها.

322 - نفسه، والصفحة، نفسها.

323 - نفسه، ص. 32.



للأفراد، بل كان واقعا بنيويا يؤديها الجسد الأسود الهامشي لتعزيز شعور المركز (الأعيان) بالسيادة والقدرة، من جهة أخرى، العبارات التي استخدمت بجرأة في النص "اغتصاب من طرف جل رجال الأسر التي اشتريتهم"، يفكك المفهوم الفقهي التقليدي للتسري في سياقه التاريخي المأزوم. ثم أن هذا الاستغلال الذي عاناه جسد الإماء الزنجيات لم يجد له أي حماية سوى بروز تضامن هامشي - كما يظهر في نص الحكاية - بين الزميلات في جناح الإماء، وهي آلية دفاعية يخلقها الهامش لمحاولة ترميم الذات المنكسرة أمام توغل سلطة الأسياد (المركز).

الخاتمة

تُبرز هذه الدراسة، من خلال استثمار وثائق الرسوم العدلية، أن الإماء السودوات في المجتمع التطواني خلال الفترة المدروسة لم يكن مجرد عنصر هامشي خاضع لمنظومة الرق، بل اضطلعن بأدوار وظيفية داخل البنية الأسرية، أسهمت في استمرارية التوازن الاجتماعي وإعادة إنتاج بعض مظاهره اليومية، مما يكشف عن مفارقة بين وضعيتهن القانونية القائمة على التبعية وموقعهن الاجتماعي ذي الطابع الوظيفي الفاعل. وفي المقابل، يُظهر تحليل ظاهرة العتق أن الانتقال من الرق إلى الحرية لم يكن انتقالاً مكتملاً بالضرورة، بل في كثير من الحالات تحوّلًا قانونيًا لا يرقى إلى تحرير اجتماعي شامل، حيث استمرت بعض مظاهر الهشاشة، خاصة على مستوى الاندماج الاقتصادي والاجتماعي، في ظل استمرار تمثيلات اجتماعية مرتبطة بالأصل السابق للأفراد، كما يتبين من خلال مقارنة هذه الظاهرة أن الرسوم العدلية، رغم أهميتها كمصدر تاريخي أساسي، تظل محدودة من حيث قدرتها على تتبع المسارات اللاحقة للمعتقات، مما يفرض التعامل معها بوصفها مصدرًا يُضيء لحظة العتق، دون أن يُحيط بكامل تجربة الفاعلين التاريخيين. وهو ما يدعو إلى توسيع قاعدة المصادر المعتمدة، عبر الانفتاح على أرسيفات أخرى، بما فيها الروايات الشفوية، والوثائق الأجنبية، وكتابات الرحالة، قصد تجاوز صمت الوثيقة العدلية وإعادة بناء تاريخ هذه الفئة.

وعليه، فإن قراءة العتق في هذا السياق تكشف عن كونه آلية ذات أبعاد دينية وإنسانية، لكنه في الآن ذاته يظل محكومًا بشروط اجتماعية واقتصادية تحدّ من أثره الفعلي، مما يستدعي مقارنته ضمن منظور تاريخي نقدي يُعيد الاعتبار لتجربة الإماء والمعتقات، ويُبرز إسهامهن في النسيج الاجتماعي بدل اختزالهن في وضعية العبودية أو التحرر القانوني. وتفتح هذه النتائج أفقًا بحثية متعددة، من أبرزها تعميق دراسة تجارب النساء المعتقات، وتحليل تمثيلات الحرية في المجتمعات التقليدية، إلى جانب استثمار مقاربات تاريخية مقارنة تُسهّم في فهم أوسع لديناميات العتق والتحول الاجتماعي في السياق المغربي.

ومن زاوية أخرى، تبرز هذه الدراسة إلى أن الكشف عن واقع الاستغلال الجنسي للإماء السودوات داخل بيوت الأعيان بتطوان، يتجاوز كونه سردا تاريخيا ليصبح ضرورة منهجية للكشف عن واقع مظلم وقسري ظل مغيبا خلف أسوار 'المسكوت عنه' في التاريخ الاجتماعي التقليدي. وهو بذلك يفتح أفقا جديدا لمراجعة آليات الهيمنة في مستويات عدة لم تأخذ حقا من التفكيك الأكاديمي الرصين ضمن دراسات البنية المجتمعية والأسرية التطوانية.

البيبليوغرافيا

المصادر

العربية

المخطوطة

بالخزانة الداودية بتطوان

• محفظة 6، وثيقة 280-289.

• محفظة 21، وثيقة 1607-1663.

• محفظة 22، وثيقة 2709.

• محفظة 23، وثيقة 1779.

المصادر المطبوعة والمراجع



- ابن عزوز محمد حكيم، تطونيات في ذاكرة التاريخ، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2001م.
- أشعاش عمر، أسرة أشعاش التطوانية استرجاع ذاكرة الوثائق المخزنية والدبلوماسية والعائلية، مطبعة الخليج العربي، ط1، 2016.
- أنطونيو دي سان مارتين، مدينة النعاس رحلة إلى داخل المغرب، ترجمة مصطفى الوريغلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2018.
- التلمسماني أسية الهاشمي البلغيثي، العبودية والنخاسة بالرقيق الأسود في مدينة تطاون إلى منتصف القرن العشرين. مطبعة المعارف الجديدة 2020.
- حسين محمود خالد، الرقيق والحياة الاجتماعية خلال القرون الأربعة الأولى للإسلام، مصر العربية للنشر والتوزيع ط1، 2009.
- داود حسناء، تطوان سمات وملامح من الحياة الاجتماعية، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مكتبة سلمى الثقافية، 2019.
- داود محمد، عائلات تطوان، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط الأولى، 2017 م.
- الرهوني أحمد، عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط 2007.
- السعديين محمد، المرأة السلاوية، 1666-1912. منشورات جمعية سلا المستقبل، مطابع الرباط نت، ط 2014.
- العلمي عيسى بن علي الحسيني، النوازل، تحقيق المجلس العلمي بفاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1983. ج 1.
- الوزاني أبي عيسى سيدي المهدي، النوازل الجديدة الكبرى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1996م، ج 6.
- غورد وعبد العزيز، آخر العبيد الرق في مغرب القرن العشرين، مكتبة قرطبة، وجدة، ط 1، يونيو 2024.
- موليراس اوجيست، المغرب المجهول، اكتشاف الريف، ترجمة عز الدين الخطابي، منشورات تفرز، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط الأولى 2007 ج2.
- الناجي محمد، العبد والرعية، العبودية والسلطة والدين في العالم العربي. توطئة ريجيس دوبري، المكتبة الوطنية، ترجمة، 2009.
- الناجي محمد، جند وخدم وسراري، الرق في المغرب. ترجمة، محمد الغرايب، منشورات فاليا، طبع مطبعة التومي، سلا، الطبعة الأولى 2018.

ندوات

- ندوة، المجتمع التطواني والتطور العمراني والمعماري، تنسيق د.ا محمد بن عبود، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ط 5، 2009.
 - كتاب جماعي، الوثيقة والصورة والذاكرة، أعمال مهداة إلى روح الفقيه عبد الرحمن المودن، تقديم مصطفى الغاشي، تنسيق عبد الحي الخيلي، محمد الخداري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان مطبعة باب الحكمة، ط1، 2022.
- رسائل جامعية
- العيساوي فاطمة، المرأة والمجتمع، دكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2009.



الأجنبية

- El Hamel Chouki, *Black Morocco, A History of Slavery, Race and Islam*. African studies. Cambridge university, press, 2013.
- Mateo Jose Luis, *Recordando a las tatas mujeres domesticas y esclaritud en tetuan (siglos 19-20)*, Editorial comares, granada, 2021.
- Ovilo y canals, Felipe, *La mujer marroquí (1881)*. 2ed, ilustrada con cromos al lápiz y dibujos a al pumapor Demócrito Madrid, 1881, emprenta de Manuel G. Hernández Hernández.

مواقع إلكترونية

www.wisdomlib.org

www.ishencyclopedia.com

<https://revistaseug.ugr.es>